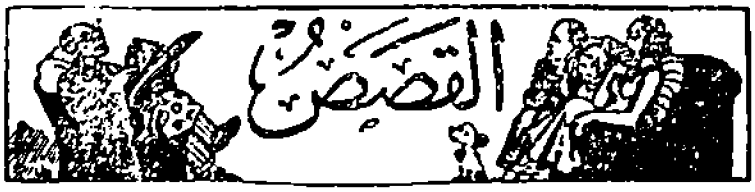

قانصوه الغورى

سلطان مصر الشهيد

للاستاذ محمود رزق سليم

مهداة إلى حضرة صاحب العزة الدكتور عبد الوهاب بك عزام

قانصوه الغورى أحد سلاطين مصر فى العصر المملوكى ، ولى عرشها زهاء ستة عشر عاما بين سنتى ٩٠٦ هـ ، ٩٢٢ هـ . وكان يوم ولايته كبير السن متأبيا على السلطنة . واتسلات أيامه بالحوادث الكبرى فى داخل البلاد وخارجها . وفى أثنائها بلغ نشاط العثمانيين مبلغا عظيما ، وانتهت أطماعهم حتى تطلعوا إلى امتلاك البلاد الشامية والمصرية . وقد خرج هذا السلطان الكبير لقائهم بنفسه ، ومعه حملة عظيمة الشأن . فاستشهد فى سبيل بلاده

ويرى القراء الكرام فيما يلى ، وتحت العنوان المتقدم ، تاريخ هذا السلطان الشهيد ، وتاريخ مصر فى أيام حكمه . نقدمه إليهم فى أسلوب قصصى فيه تمثيل وحوار يلطفان من خشونة العرض العلمى الخالص . وقد جهدنا ما استطعنا فى تصوير نزعات عصره من دينية أو سياسية أو اجتماعية أو أدبية أو علمية ، على مقدار ما تحتمله قصة صغيرة . ولم يلهنا خيال القصة عن تحرى وجه الصواب فى حقائق التاريخ . ولعلنا بذلك نقدم عملا متواضعا ، يسفر منه تاريخ بلادنا العزيزة فى حقبة من أهم حقبه

يوم التولية :

ثار المسكر فى وجه سلطان البلاد الملك العادل فى آخر يوم من أيام رمضان عام ٩٠٦ هـ ، حتى اضطر إلى الاختفاء . فسرى الخبر همسا بين القاهريين ، أن بيعة سلطان جديد ستتم الليلة ، إذ يجتمع الأمراء للمشاورة والاختيار . ومن ثم يقومون برسوم التولية فى صباح الغد ، أول يوم من أيام عيد الفطر

وما كان أحب مجالس البيعة وأخبارها عند القاهريين ، وما كان أبهج حفلات التولية ومواكبها لديهم

لذلك ، ما بزغت شمس الاثنين مستهل شوال ، حتى بكر كثير من أهل القاهرة فى اليقظة ، وأخذوا يمدون المد ليمموا شطر القلعة ، حيث تجرى البيعة ويسير موكب السلطان ليتموا العين برأى هذا السلطان الجديد ، وليتبينوه من هو ؟ ومن يكون ... ذلك لأنهم لم يكن لهم من أمر اختيار سلطانهم شئ .. واستبد بالأمر دونهم أمراء السلطنة الجراكسة ، واستأثروا بالحكم فيهم ، وقصروا على أنفسهم مسئولية اختيار السلطان . درج الشعب على هذا النظام ، واستنام إليه ، إن طوعا وإن كرها ، تلك الحقبة الطويلة من الزمان

وما هو إلا قليل ، حتى امتلأت الطرقات بالوافدين عليها من كل حدب وصوب . واكتظت الميادين بقصادها ، واختلطت الجموع بالجموع ، وتراصت الصفوف خلف الصفوف ، فى أزياء فضفاضة ، ذات أشكال متعددة ، وألوان متباينة

وأخذ النسوة والعذارى يطرقن الطرق ، أو ينزعن المسالك فى حللهن البهية ، وأثوابهن الطلية . وتوارى بعضهن خلف الكوى والشرفات ، يشرفن على الجمع من كثب ، ويسترقن السمع والنظر ، وتتنقل عيونهن بين الفرج ، ليتمتعن كما يتمتع سائر الناس ، بما ضرب من زينة عاجلة ، وما أشيع من حفاوة مرتجلة ، أمر بإقامتها التجار والصناع وأصحاب الحوانيت وملاك المنازل وسكانها ، هنا وهناك

وبالقاهريين ومن حولهم من سكان الضواحى ، شعور خفى يحفزهم إلى تعجل المسرة ، واستدرار اللهو ، واقتناص اللمة كلما سنحت فرصة لذلك ، أو وجدوا إليه سبيلا . ولهذا عجلوا إلى تلك الزينات السريعة ، وبينما يتم أمر التولية ، استعدادا للقاء موكب السلطان . لعلهم بتلك المسرة المقتنصة يأسون جراح دهرهم العاسف ، أو يطبون حظهم السقيم

ومهما يكن من شئ فهم على الأقل يودعون سلطانا بادت دولته وذهبت صولته ، ويستقبلون آخر أشرقت أيامه وأهلت لياليه . لعل لهم فى ظله ما يحقق لهم آمالا جميلة ، طالما غمرتهم أطيافها الحسناء فى أحلام يقظتهم ، ولم يتحقق منها أمل فى

العصر البائد

على أنك ترى مرارة الحياة بادية على أحاديثهم ، واضحة فى محياهم ، يغشيها ستار رقيق من الأمل الخالى ، والرجاء المعسول . وهم ينفثونها أحيانا فى نقدة لاذعة ، أو يضمنونها فكاهة مرة ، أو تورية بارعة

لهذا يهرعون إلى الزينات — فى مثل هذه المناسبة — فيضربونها ، وإلى الرايات فينصبونها

أنظر إذاً إلى الحوانيت ووجوهها ، والمنازل وجهاتها ، والمسالك وجوانبها ، فى أحياء القلعة وما حولها ، تر قطع الأقمشة من كل لون زاه ، قد تألفت طوائفها ، وتألقت طرائقها ، والتريات الزيقية منثورة ، زينة للنهار الحاشد المنتظر ، وعدة لليل الحافل المرتقب . والشعب مجتمع شمله ، ملتئمة صفوفه ، يسود بين أفراده لغط وضجيج ، وهمس وعجيج . بين أقاويل متشعبة ، فيها الصدق والكذب ، وفيها الحق والباطل ، وفيها العدل والجور . وهم ما بين لجج لاه بما هو فيه من نشوة وسرور ، سباق إلى اقتناص فرصته وبلوغ غايته ، ومتحدث رزين يرسل الحديث فى روية وبطء ، كأنما يقرأ فى سطور الحاضر مخبآت المستقبل ، وناقد يمزج فى نفسه وحديثه ، النقد السطحى العابر ، بالرغبة الواهمة فى أن يأخذ من المهجة المائلة بنصيب ؛ وناقد آخر لاذع فى نقده ، جرىء فى لفتاته ، شجاع فى ملاحظاته

وبين هذه الجموع الضاجة وقف صديقان يستفتان النقاش ، وقد علا وجهيهما الجد ، واختلفا طربا وصخبا ، وخفة ولجاجة . وتقاتلا شعورا ورأيا ؛ واستطردا إلى أشياء فى الماضى ، وأمور فى الحاضر ، وآمال فى المستقبل

قال أحدهما لزميله :

— لله ما أبهى اليوم ، وما أجمل الساعة ! ها هم أولاء المماليك السلطانية قد انتشروا فى الطريق وهم شاكو السلاح ، ليعصموا اليوم من الفوضى ، ويشيعوا فى الموكب النظام

— أعلمت لهؤلاء نظاما ؟ أو نسيت عبث الجلبان والقرانصة ، وما بين الفريقين من عداوة وشحناء . إن هؤلاء وهم جنود الدولة ، مبعث الفوضى ، ومصدر السوء ، ومثار الفساد — هم عباد المال والشهوات . يبذلون للسلطان الطاعة والولاء ، ما دامت يداه تفيضان عليهم تبرا وذهبا وهاجا . ويفرق فوقهم شتى منحه وعطاياه ، ويفرق عليهم ما لذ من الطعام ، وما ثمن من الثياب ، وما فره من الخيل ، مزودة بما تحتاج إليه من أغذية وأردية ، ثم يتنكرون له ، ويلبسون جلد النمر ، إذا تراخى فى عطائه ، أو ازورت عنهم دراهمه ودنانيره ، أو بدا لهم فى أفق السلطنة مانح جديد

ألم تشهد كيف غدروا بالملك العادل أمس ؟ وكيف خاسوا بعهده ؟ وكيف كادوا يبطشون به لولا فراره واختفاؤه ! إنهم بذلك يمهدون السبيل لأمير آخر من أمرائهم ، يسلمونه زمام السلطنة ، لقاء ما ينالونه على يديه من حظ جديد ! ثم ليتهم يستقيمون فى تأييدهم حتى تتم بيعة السلطان المختار بغير شغب أو نزاع ... لقد بلغنى أمس أن الأمراء اجتمعوا للتشاور فى منزل الأتابكى قانصوه خمسمائة ، الذى لم يظهر من يوم اختفائه . وهذا المنزل فى قناطر السباع . وفى مقدمة الأمراء المتشاورين ، الأمير قيت الرجبى ، وقانصوه النورى ، وطرابای ، ومصرباى . ثم انضم إليهم أخيرا الأتابكى تانى بك الجمالى الذى اختفى من وجه الملك العادل ، خوفا من أن يفتك به . فظهر أخيرا عندما سنحت له فرصة الظهور ، وانضم إلى الأمراء المتشاورين

واعتقادى أنه ما من أمير من هؤلاء إلا وهو يخطب السلطنة لنفسه ، ومن ورائه فئة من الجنود يؤيدونه ... ومع ذلك قيل إنه تم اختيار تانى بك الجمالى للسلطنة ، ثم سرعان ما غدر به الجند ، ولم يرضوا بسلطنته ، فرجع الأمراء عن ترشيحه لها . وهكذا أفلت من يديه زمامها ، قبل أن تتم رسومها

واليوم تتردد الإشاعات أنها ستكون من نصيب الأمير قانصوه النورى — وهو على كل حال ، أمير طيب القلب بلغ من العمر ستين عاما . ومع ذلك لا يزال فتى النفس ، لم يبد فى شعر لحيته بياض مشيب

لكن ! أرأيت إلى أى حد يعبث هؤلاء المماليك بمصير مصر وشعبها ، بينما الشعب يغط فى نوم عميق ؟ لقد بلغنى منذ قليل أن عددا من أشرار المماليك الجلبان انتهز فرصة عيد الفطر

اليوم ، وانصراف الناس إلى الراحة والاستجمام ، أو التفرج بالزينة والموكب ، وعاثوا فى أسواق القاهرة فسادا ، وأحرقوا بعض الدور ، ونهبوا ما فيها . فهل ترجو من أمثال هؤلاء نظاما أو إصلاحا ؟

— صدقت فى حديثك ... ولكنهم — على أية حال — دعامة الدولة وسند السلطان . وهم حقا ضريبة من ضرائب الإهمال يفرضها الزمان علينا . غير أننا لا ننسى أنهم دفعوا العدو عن بلادنا زمنا طويلا . وحسبك ما مر من عشرات السنين كان للفرنجة فى بلادنا مآرب لا تنقضى ، وكان للتتار مآرب أخرى . فوقف لهم هؤلاء الأبطال ، وأوقعوا بهم فى مواقع عدة . ففروا إلى حيث أتوا ، مزودين بالهزيمة والاندحار

— نعم ! ولكن لنا القشر ولهم اللباب . لعلك نسيت مسلكهم الشائن معنا نحن أهل القاهرة . إنهم كانوا — وما زالوا — يهتكون فينا ويسلبون منا . ثم هم إنما يمثلون الفتن والقلاقل والدماء المسفوكة ، والأشلاء المتطايرة والسجن والتشريد ...

إن حياتهم ملأى بكل هذا العذاب ، ما بين سيد فيهم ومسود ، وظالم منهم ومظلوم ، وحاقد بينهم ومحقود عليه ... هذه هى سياستهم وسياسة أمرائهم وكبرائهم ... ألا تعسا لحياة تحتلى بكل هذا الشقاء .. !

— ليست هذه الحالة دائمة بينهم ، وكأننى أراك تقرأ تاريخهم من حاضرهم فحسب . لعلك من أولئك الذين وهب لهم حس مرهف ونفس مستوفزة ، تعان فيها الأحداث الحاضرة ، حتى تملأ أذنيها . فلا تسمع بعد أى صوت من أصوات الماضى ...

لقد كان الجنود المماليك فى عصر المنصور قلاوون يعيشون على خير نظام وفى أجمل هندام . فقد وضع لهم هذا السلطان العظيم قواعد للتربية قويمة ، وأخذهم بها دون لين أو هوادة أو مهادنة . فرباهم فى طباق القلعة وأبراجها . ووكل أمرهم إلى الحذاق من الزعماء . وفرض عليهم التمرينات العسكرية والرياضية القاسية ، وعنى بطعامهم وشرابهم ولباسهم . وكان يشرف على كل أولئك بنفسه ، فنشبوا رجال خلق كريم ، ونفس قويمة ، ودين سليم . ولم يكن يسمح لهم بالاختلاط بغيرهم من الطوائف حفظا لهم من عدوى الأخلاق

— حقا لقد رباهم المنصور تربية محمودة ، ونشأهم تنشئة حسنة ، ولكن مرعان ما عدل السلاطين من بعده عن نهجه ، واتباع سبيله ، ففتر هذا النظام وقلت تلك العناية ، وفرط السلاطين فى إعدادهم ، حتى أصبحوا من بعد ، وليس لهم نظام متسق ، ولا تربية محمودة ، ولا خلق كريم ، ولا نفس طيبة ، حتى صاروا : « أرذل الناس وأدناهم ، وأخسهم قدرا ، وأشحهم نفسا ، وأجهلهم بأمر الدنيا ، وأكثرهم إعراضا عن الدين . ما فيهم إلا من هو أزنى من قرد ، وألص من فأرة ، وأفسد من ذئب . »

— إنك متجن عليهم أيها الصديق ! ألا تدرى أنهم لنا حمى ، ولحياتنا مجن ؟ إننا ننعم بسلام فى بيوتنا ، وأمن فى مربعنا ، على حساب ما يبذله هؤلاء الشجعان من أرواح . حقا يسرف أمراؤهم وسلاطينهم فى فرض الضرائب على الشعب ، ويثقلون كاهله بالنفقات إزاء خدماتهم . ولكنهم إزاء ذلك أراحونا من شر القتال ، وأخذوا على عاتقهم حمايتنا من شرور الأعداء .

ثم ما بالك تذكر سيئات أشرارهم وهنات صغارهم ، وتنسى حسنات أخيارهم ، ومحامد كبارهم ؟ إن كثيرا من سلاطينهم وأمرائهم ينقادون للدين ، وينطوون تحت أحكامه ، ويعظمون أهله ، وينشئون المساجد للعبادة ، والمدارس للتعليم ، ويدرون أخلاف الخير وضروع البر على المحتاجين من طلاب العلم وغيرهم . وذلك كله جدير بأن يطلق الألسنة لهم بالدعاء والثناء

— إنك يا صاح انحدرت من حديث الرجال إلى أسلوب النساء ... ! ففى معانيك الضعف والضعة ، وفى أفكارك الخور والجبن ! حسبك عارا أنك تذكر محاسنهم لك من الأعداء ... وفى الحق أنهم يحمون أنفسهم لا يحمونك أنت ، ويدفعون عن ملكهم لا يدفعون عنك أنت . ولننزل على منطقك ونقول إنهم يحمونك ... ولكن أتدرى كيف ذلك ، ولماذا ؟ . إنهم يحمونك كما يحمى الراعى بقرته خوفا على لبنها أن يتعب ، وحرصا على جسدها أن يخور ويبلى . وهم قبل ذلك وبعد ذلك ، سادتك ! لا تقعد منهم إلا مقعد العبد ... فهل بعد ذلك ذلة للرجال ؟ اطلب

إليهم أن يتركوا لك حماية نفسك بنفسك . فهل تراهم يجيبونك إلى سؤلك ؟ ويجيزون لك أن تحمل السلاح وأن تنخرط في الجيش ؟ . كلا ! وكأنما الجندية هبة اختصهم الله بها دون سائر أفراد الشعب وكأنما الروح العسكرية والحمية الوطنية وقف عليهم ، وصفة ما خلقت إلا فيهم ، ونزعة ما عرفت إلا لهم . أما أنت وأمثالك فلا تصلحون — في نظرهم — للكر ، وإنما تصلحون للحلاب والصر ... لقد حرمونا دخول الجيش ، وحرموه علينا ، ولم يتصلوا بنا إلا اتصال السيد بالمسود . وكفى بذلك هوانا ... فأية عزة ترقبها لبلادك على يد هؤلاء الغرباء الفاليك المستبدين الذين لم يجمعهم بالبلاد جامعة جنس ولا نسب ولا لغة ولا ألفة ولا عطف .. ثم هم لا يجمع بعضهم ببعض إلا أخوة في رق ، أو اتفاق في ضغينة ، أو ائتلاف في فتنة ، أو التماس لكيدة ، أو ائتمار على غدر ... أغلب ظني أن ما بناه أسلافهم من عز وسؤدد ، سيهدمه هؤلاء الجلبان وهؤلاء القرانصة ، ومن لف لفهم من هذا الخليط الدنس من أوشاب الأمم الذي تعج به بلادنا المنكودة . ألا تبالهم وقبحا وسحقا ، !

أما ما تتشدق به من مساجد ودور تعليم فحسبي أن أقول لك إنهم يبذلون في سبيل ذلك ، على أنه منحة منهم للشعب وصدقة عليه ، لا على أنه حق للشعب قبلهم يؤدونه إليه ...

ألا دعنا من هرائك وسفسطتك ! وقل لي كم رجلا في بلادنا يغار عليها غيرتك ، ويخلص لها مثل إخلاصك ؟ وكم فتى من فتيانها يحدب عليها كل هذا الحدب ، وتتقطع نفسه عليها أسى ، وتذهب حسرات ، كما تتقطع نفسك وتذهب ؟ وكم قلب بين قلوب بنيها يفيض عليها إشفاقا كما يفيض قلبك ؟

لشد ما أتألم لأجلك . . لما لك من إحساس مرهف ونفس شاعرة !

اترك المستقبل لأهله ، فليس علينا حمل أعبائه وهمومه . وحسبنا ما نحن فيه من حاضر غمم بحوادثه وآلامه... ولنخفف عن النفس أحزانها بما نراه من بهجة وزينة ... لنس ما في طوياك من هم . ولمرح ببصرك في محاسن هذا اليوم ، واقبس مما تشاء وتشتهي من مفاتنه . ثم إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ..

انظر إلى أثواب الجند الزاهية الألاقة ، وإلى وجوه الناس الباسمة المشرقة ، وإلى الحسان الفاتنات يرحن ويغدون في حللهن الأنيقة البراقة ، وإلى الأطفال الذاهلين عن عيد الفطر ، فقد غمرهم عيد التولية بموجة من موجات فرحه ، ألا تخبرني من سيكون السلطان ؟ ومن سينال شرف السلطنة اليوم ؟.

واألماه ! تدعوني إلى أن أنسى المستقبل ، ولا أفكر فيه .. ألا تعلم أن الدعوة إلى إهمال المستقبل وترك الاهتمام بمصير البلاد هي الأنشودة البائسة الحزينة ، التي ترتلها الأمة المنكوبة الخائرة كلما أحست بضعفها .. وأرادت أن تتلهى عنه وتخدع نفسها . . لو اهتم بأمرنا من سبقنا من الآباء والأجداد لاعتدلت لنا ريح حاضرنا ونعمنا فيه بشيء من صفو الحياة . ومادام كل جيل يسلم إلى الأقدار مستقبل بلاده ، ويهمله ، فستتلقفه الأحداث والغير ، وتلقيه بين يدي مستبد ، وإلى كف طاغية ، وتتنقل به من بؤس ، إلى بؤس ، حتى تتقلب أجيالا في شقاء الحرمان أمدا طويلا ....

أما سلطان اليوم فأظنه قانصوه الغوري — كما تردد الألسنة — لقد رشحه السلطنة ، كما ذكرت لك ، كبر سنه ، وطيب نفسه وعيوفه عن السلطنة . . . وهذه وسيلة بارعة من وسائل اقتناصها . . . لقد قيل إنه رفضها وأباها . ولو ظهر أمس الأتابكي قانصوه خمسمائة ، من اختفائه ؛ لكانت السلطنة من نصيبه ولولا فساد قلوب الجند على الأتابكي ثاني بك الجمالي ، لظفر بها أمس ورمت بيعته ....

ألا قبح الله الملك العادل السفاك ! من غريب ما يروى عنه أن المنجمين أخبروه أن السلطنة يسلبها منه أمير يبدأ اسمه بحرف « ق » فظنه صديقه « قصروه » فبطش به وقتله ظلما ، بعد أن أبلى قصروه البلاء الحسن في معاونته على الوصول إلى السلطنة .. ولم يحسب العادل حسابا لقلف أخرى تبدو في الأفق . ولله ! ما أكثر القلاقات في بلدنا .. !

* * *

انقطع الجدل بين الصديقين على إثر موجة جارفة من الضجيج تنتشر باقتراب موكب السلطان.

بدت طلائع الموكب. وكان الأمراء منذ قليل يشتورون في الحراقة بباب السلسلة بالقلعة. فتم رأيهم على اختيار الأمير قانصوه الغوري سلطانا على البلاد بعد فرار الملك العادل وإعلان خلعه

ولقد تعصب للغوري الأميران: قيت الرجبي، ومصرباي. فبكى الغوري وأبى قبول السلطنة معتذرا بكبر سنه. فاستلانوه إليها بشتى وسائل خداعهم، حتى رضي بها مشفقا منها. وقد أعوانه البيعة، فبايعه الخليفة ووكل إليه - كالمعتاد - أمور السلطنة ثم بايعه القضاة. ولقب بالملك الأشرف. فذاع لقبه بين الجموع الحاشدة، وهيأوا ركبه ليسير من الحراقة إلى باب السر بالقصر الكبير، حيث يقدم له الأمراء واجب الطاعة والولاء

لبس الغوري شعار السلطنة - ملابسها الرسمية - وهي جبة وعمامة سوداء. وامتطى صهوة فرس مسرج بالذهب. وأخذ في المسير تتقدمه شراذم من الجند في أزيائهم الرسمية وأسلحتهم المجلوة. وتقدم الأمير قيت الرجبي، وحمل بنفسه شعاراً آخر للسلطنة، تبجيلا للسلطان وتعظيما لشأنه. ويتألف هذا الشعار من قبة من حرير ثمين تنشر فوق رأس السلطان وقت المسير، كأنها مظلة. وفوقها طائر من الذهب. وركب إلى يمين السلطان، خليفة العصر، وهو المستمسك بالله يعقوب العباسي، وبين يديهم الأمراء يسيرون بشاشهم وقماشهم - أزيائهم الرسمية - في ألوان زاهية وفوق جياد عملاة

وبدت طلعة السلطان الشعبية، فدوى صوته هاتفا «نصر الله السلطان الأشرف»، «أعز الله الإسلام» وانطلقت من خلف الكوى وصوب الطيقان زغاريد النسوة تشق أطباق الفضاء، فرحة مستبشرة تؤذن بطلوع عهد جديد...

وكان الشعب يلمح بفراسته الساذجة الصادقة على محيا السلطان الجديد، جملة من المعاني المتضادة المتمازجة، فيها الشعور بالألم للماضي، وما كان فيه من مشاحنات، وما أبقى من تراث، وفيها الإشفاق من المستقبل وما يخبئ من مفاجآت في طياته. وفيها هزيمة حادة جادة وتصميم على المجالدة والمجالدة، والعمل على رفاهة مصر وشعبها، وإعلاء شأنها عند غيرها من الأمم، والمحافظة على نفوذها الأدبي والسياسي، كل ذلك تغشيه موجة من الفرح الغامر، لا تكاد تستر من معالمه شيئا، ولا تخفي من آبائه قليلا.

كان أفراد من المشاهدين يرقبون هذه المظاهر، ويلمحون هذه المعاني، فيفاجئ بعضهم بعضا بما يفطن إليه منها. ثم انثنوا بين مثن وناقد. على أن الحوادث كانت تمر بهم ولا أثر لهم في مسلكها، بيدأنها لا تتركهم إلا بمرارة لاذعة تتوطن النفوس وتقتعد غوارب القلوب، وهم لا يملكون لوقعها تخفيفا

* * *

استقر ركب السلطان الغوري بالقلعة، فجلس على سرير الملك، وقبل الأمراء الأرض بين يديه. فأفاض عليهم خلعه ومنحه، من أقمشة نفيسة وأردية غالية، ومناصب سامية. وكلما أفاض على أحدهم شيئا، جأر له بالدعاء. وانصرف حامدا إلى داره في موكب حافل

تتابعت على هذا النسق مواكب الخليفة والأمراء. وكانت مجالا لسرة الناس وابتهاجهم. ونودي للسلطان في أرجاء القاهرة، فأقامت المدينة بقية نهارها وعامة ليلها في مرح ساهر وزينة حافلة. وكأن اليوم فيه عيدان لا عيد واحد

محمود رزق سليم

تظهر قريباً الطبعة الثامنة
من كتاب
آلام فرتر
للأستاذ أحمد حسن الزيات
وهي القصة العالمية الواقعية الرائعة الخالدة
للشاعر الفيلسوف
«جوته» الألماني.

فانه أردأ فصول العام . يطرد النسم بالسموم ، ويخنق المطر بالغبار ، ويذبل الزهر باللهيب ، ويرمى الطير بالبكم ، ويفسد المزاج بالوخومة . ثم يكون حلوله بعد رحيل شتاء هادىء جميل ، فى هوائه الدفء ، وفى جوه الصحو ، وفى سمائه الإشراق ، وفى أيامه النشاط ، وفى لياليه الأنس . فاذا رأيت الريف فى الشتاء ، رأيت الأرض على مدى البصر قد غطاها بساط من السندس الأخضر ، تخف خضرته فى حقول القمح فتكون كالزمرد ، وتثقل فى حقول البرسيم فتكون كالفيروزج ؛ فلا يجد الشاعر المصرى وقد انتقل من رقة هذا الشتاء إلى قسوة ذلك الربيع ما يجده الشاعر الأوربى من الحياة والمرح والبهجة والنشوة والطلاقة حين ينتقل من شتائه المكفن بالثلوج إلى ربيعه المكسو بالورود

للربيع فى الشعر الأوربى أرخم الأوتار وأعذب الألحان من موسيقى الشاعر ؛ لأن الشتاء فى أوربا عناء طويل وهم ثقيل : ظلام متكاثف يحجب السماء ، ومطر واكف يغمر الأرض ، وبرد قارس يهرأ الأجساد ، وغمام متراكم يسد الأفق فلا ترى شعاعة شمس ولا خفقة طائر ؛ وثلج متراكب يطمر الثرى فلا تجد عشبة فى مرج ولا زهرة فى حديقة . والناس هناك فى حنين دائم إلى الربيع ، لأنه فى دنياهم حياة بعد موت ، وابتهاج بعد كآبة . ولشعرائهم فيما يبشرهم بمقدمه رقائق من الشعر الشاعر ، تقرأها فى البشريات الأولى ، كشيوع الدفء فى النسيم ، ودبيب الحياة فى الشجر ، وعودة العصفور المهاجر إلى عشه ، وخرير الجدول الجامد بعد صمته . فاذا أقبل الربيع متمهم بما حرموه طويلا من جلوة الطبيعة فى الأفق المشرق ، والروض البهيج ، والجو المعطر ، والطير الصادحة ، والضواحى الأنيقة ، والنابات الوريقة ، والمتنزهات اللاهية . والربيع الأوربى على الجملة تغيير فى النفس وتجديد فى الحياة . والتغير والتجدد يلهمان القرائح الخلاقة شعرا يمتزج فيه الوجدان بالوجود ، ويتصل به الخيال بالحقيقة .

أما شعراءنا المصريون فأى جديد يأتيهم به الربيع فى آفاقهم وفى أنفسهم ؟ إن الشمس والدفء والصحو والطير والزهر والزرع والماء من خصائص مصر الطبيعية ، لا تنفك عنها طيلة العام ، حتى ألفتها المشاعر والنفوس ، فلا تشتاقها لأنها لا تغيب ، ولا تحتاجها لأنها لا تنقطع . ومن هنا تشابهت الفصول الأربعة فى حس الشاعر ، فلا يكاد يرى اختلافا بينها إلا فى حيوية الشتاء وشاعرية الخريف . ولذلك لم يجد الشعراء ما يقولونه فى الربيع . فاذا قالوا مدفوعين بغريزة المحاكاة أو بشهوة المعارضة ، قالوا كلاما قد يكون منضد الألفاظ ، مجود التشابيه ، ملون الصور ؛ ولكن الفرق بينه وبين الشعر الصحيح يكون كالفرق بين الجماد والحى ، أو بين الدمية والمرأة

ولقد نظرت فى شعرنا القديم والجديد فلم أر شاعرا قبل شوقى ولا بعده خص الربيع بقصيدتين من محكم الشعر وجيده ، إحداهما طويلة مستقلة ، أهداها إلى الكاتب القصصى هول كين ، والأخرى قصيدة تابعة جعلها صدرا لقصيدته التى نظمها فى المهرجان الذى أقيم لتكريمه ، يقول فى الأولى :

آذار أقبل قم بنا يا صاح ... حى الربيع حديقة الأرواح
واجمع ندامى الظرف تحت لوائه ... وانشر بساحته بساط الراح
صفو أتيح فخذ لنفسك قسطها ... فالصفو ليس على المدى بمتاح
واجلس بضاحكة الرياض مصفقا ... لتجاوب الأوتار والأقداح

إلى أن يقول :

ملك النبات فكل أرض داره ... تلقاه بالأعراس والأفراح
منشورة أعلامه من أحمر ... قان وأبيض فى الربى لماح
لبست لمقدمه الخمائل وشيها ... ومرحن فى كنف له وجناح
الورد فى سرر الغصون مفتح ... متقابل يثنى على الفتاح
ضاحى الملا كب فى الرياض مميز ... دون الزهور بشوكة وسلاح
مر النسيم بصفحتيه مقبلا ... مر الشفاه على خدود ملاح
هتك الردى من حسنه وبهائه ... بالليل ما نسجت يد الاصباح
ينبيك مصرعه وكل زائل ... أن الحياة كغدرة ورواح
ويقائق النسرين فى أغصانها ... كالدر ركب فى صدور رماح
والياسمين لطيفه ونقيه ... كسريرة المتنزه المسماح
متألق خلل الغصون كأنه ... فى بلجة الاصباح ضوء صباح

ثم يقول فى الأخرى :

مرحبا بالربيع فى ريعانه ... وبأنواره ، وطيب زمانه
زفت الأرض فى مواكب آزا ... ر ، وشب الزمان فى مهرجانه
نزل السهل ضاحك البشر يمشى ... فيه مشى الأمير فى بستانه
عاد حليا براحتيه ووشيا ... طول أنهاره ، وعرض جنانه